مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 21 العدد 01 السنة 2020 ص ص 78-100
E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

الفيلة ودورها في الحروب البونية
(265-202 ق.م)

Elephants and their role in the Punic Wars
(265-202 B.C)

سليم سعيدي [1]

[1] جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة، salimsaidi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 31ماي2018 تاريخ القبول:1705 2020

Abstract:

The elephant is considered one of the main animals used in wars by the Indians, the Greeks and the Ptolemies and especially by the Carthaginians who used them in their wars against the Romans, in the first and second Punic wars.

The elephant is strongly linked to the companion of Hannibal against Italy, where the Carthaginians won several battles, however they lost others despite the introduction of elephants and this for several reasons like the last battle of Zama 220 (AJ).

Key words:

Punic Wars, Elephant, Hannibal, Battle of Zama, Carthaginians.

المؤلف المرسل: سليم سعيدي .

البريد الالكتروني: salimsaidi@gmail.com

الملخص:

يعتبر الفيل من أهم الحيوانات التي استخدمها القادة في الحروب القديمة كالهنود والفرس والإغريق والبطالمة وخصوصا القرطاجيين الذين استعملوه خلال صراعهم مع الرومان في إطار الحرب البونية الأولى والحرب البونية الثانية.

ارتبط الفيل ارتباطا وثيقا بحملة حنبعل على إيطاليا، إذ حقق القرطاجيون بفضل الفيلة عدة انتصارات هامة، في حين أخفقوا في معارك أخرى رغم استخدامهم للفيل لعدة اعتبارات مثلما حصل ذلك في معركة زاما سنة 202 ق.م التي كانت آخر معركة استعملت فيها الفيلة.

الكلمات المفتاحية:

الحروب البونية، الفيل، حنبعل، معركة زاما، القرطاجيين.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

تمهيد:

استعملت الشعوب القديمة كل ما توفرت لها من وسائل لخوض حروبها وهزم أعدائها، فكانت الحيوانات إحدى تلك الوسائل ومن أهمها الخيول والجمال والفيلة سواء لنقل الأمتعة من ماء وطعام وأسلحة ولحمل الجنود، وكذلك في استخدامها في خطط القتال وكان أفضلها على الإطلاق هو الفيل دون شك الذي ساهم لعقود طويلة في حسم المعارك لدى عدة جيوش. فمتى بدأتالشعوب بصفة عامة والقرطاجيون بصفة خاصةيستعينون بالفيلة لخوض حروبهم ؟ وكيف وضعت الفيلة في خططهم العسكرية ؟

كانت سكان نهر الأنديز والغانج والمناطق المجاورة لهما وخاصة في منطقة موهانجدارو أحد أهم المراكز الحضارية بل وأقدمها التي دجّنت الفيلة واستعملوها في حمل الأمتعة خاصة الأخشاب ثم في محاربة الخصوم من خلال بث الفزع والاضطراب في نفوس المقاتلين، ما بين 2400 ق.م و1800 ق.موكان أولاستخدام للفيلة في المعارك العسكرية أول مرة في إقليم البنجابالهند[1]، ثم انتشرت هذه الممارسة بعد ذلك إلى كامل منطقة جنوب شرق آسيا، ومنها إلى جيوش الإمبراطورية الفارسية[2] ضد الإسكندر المقدوني[3].

أماكن تواجد الفيلة في شمال أفريقيا:

كان القرطاجيون أكثر شعوب البحر المتوسط استعمالا للفيلة في حروبهم ضد الرومان والمتمردين إذ أصبحت الفيلة بديلا عن سلاح العربات المجرورة بواسطة الخيول في سلسلة طويلة من الحروب عرفت بالحروب البونية (264-146 ق.م)، وذلك بعد احتكاكهم بالملك الإغريقي إبيروس في صقلية ما بين 278 – 276 ق.م، الذي كان أول من استخدم هذه الحيوانات في القتال في منطقة البحر المتوسط، ومن هنا أدرك القرطاجيون مدى أهمية هذا السلاح الجديد، وسهولة الحصول عليه، لاسيما أن غابات شمال إفريقيا كانت مأهولة بأعداد كبيرة منها في ذلك الوقت[4]. وهذا ما يؤكده الكتاب القدامى أمثال هيرودوت[5] الذي أشارإلىأن الفيل كان يعيش في الجزء الغربي من ليبيا، ومما يدل على كثرته أن سكان سيرني في الجنوب المغربي كانوا يقايضون أنياب الفيلة بالمواد المصنعة مع الفينيقيين حسب ما ورد في تقرير رحلة حنون[6]، كما يذكر سترابون أن سكان موريطانيا كانوا يصنعون من أنياب الفيلة أكوابا للشرب، أما نساءهم فكن يتزين بعقود عاجية، بل وزينوا خيولهم كذلك بمثل هذه العقود، في حين يستعمل الرجال جلود الفيل كتروس لتحميهم من ضربات الخصوم[7]، والأكثر من ذلك أن سكان المنطقة المذكورة استعملوا أنياب الفيلة كركائز وأعمدة وسياجات لبيوتهم وزرائب لمواشيهم، لكن فيما بعد أدركوا مدى أهمية أنياب الفيلة وأنها ذات قيمة معتبرة لديهم[8]، وقد حدّد بلين بلين الكبير المناطق التي تعيش فيها الفيلة وتتمثل في ما وراء صحراء السيرت وفي موريطانيا الطنجية وفي بلاد الأثيوبيين[9].

وقد استمر تواجد الفيلة في بعض مناطق شمالأفريقيا حتى القرن الثالث للميلاد كما تشير إلى ذلك النقيشة اللاتينية لبانازا في شمال المغرب الأقصى

والمؤرخة بسنة 216 م، إذ يوصي في هذه النقيشة الإمبراطور الروماني كاركلا (211-217 م) بإعفاء سكانها من الضرائب مقابل تزويده بالفيلة، لأن الحصول على هذه الأخيرة من الهند بات صعبا بسبب الحروب المشتعلة آنذاك كالحرب الفرثية مع الفرس[10]، غير أن الرومان لم يستوردوا الفيلة من أجل استخدامها في الحروب بل من أجل عرضها في مسارحهم المدرجة لإحداث الفرجة للمواطنين الرومان.

ونستنتج من كل هذه الشهادات السالفة الذكر أن الفيلة كانت متوفرة في كامل منطقة شمال أفريقيا القديم من منطقة السيرت إلى المحيط الأطلسي وكذلك في شمال الصحراء، غير أن هذه الحيوانات في هذه الفترة لم تكن تستعمل في حروبهم بل اكتفوا باستغلال أنيابها لصناعة بعض الأدواتأو لتصديرها إلى الفينيقيين والقرطاجيين صارت تصدر بعد سقوط قرطاج للرومان، ولم تستعمل كوسائل حرب إلا مع بعض الملوك بدء من يوغرطة ويوبا الأول، وهذا بعد تأثرهم بالقرطاجيين.

ويتزود القرطاجيون بالفيلة من خلال تموين النوميديين والموريين لهم، أو ترسل قرطاج بنفسها حملات لصيد الفيلة ثم يقومون بعملية ترويضها بإشراف ضباط من نخبة الجيش من أمثال صدربعل بن جيسكون الذي كلف خلال الحرب البونية الثانية ضد الرومان بمهمة جلب الفيلة من الغابات المجاورة[11]، ومن هنا استطاعت قرطاج أن تمتلك أقوى جيش مزوّد بالفيلة على مستوى

منطقة البحر المتوسط فكانت إسطبلاتها تأوي أكثر من 300 فيل في عاصمة البلاد[12].

ولقد بدأ استخدام الفيلة في الجيش القرطاجي مع بداية الحرب البونية الأولى وتنتهي الاستعانة بهامع نهاية الحرب البونية الثانية بعد الهزيمة التي منيوا بها في معركة زاما 202 ق.م آخر معارك تلك الحرب كما سنوضح ذلك في الصفحات التالية، ومن خلال المصادر الكلاسيكية فإن مجموع المعارك التي خاضها القرطاجيون واستخدموا فيها تلك الحيوانات الضخمة لا يتجاوز عشرة معارك تراوحت ما بين الانتصار والهزيمة. **(انظر الجدول رقم1،بعد الخاتمة)**

تعتبر الفيلة سلاح هام وفعال إذا أحسن استخدامه، فالقائد الذي يمتلك في جيشه عددا من الفيلة له شحنة معنوية إضافية في مواجهة أعدائه، ومن جهة أخرى فإن اصطدام هذه الحيوانات الضخمة بالمشاة والفرسان في جيش الخصم فإنها تدوسهم وتبث الرعب والاضطراب في نفوسهم وتشتتهم[13]، ومن وجهة نظر تكتيكية فإن الفيلة تلعب دور المدرعات في جيوشنا الحالية في القضاء على المشاة الثقيلة وفي اختراق الخنادق[14]، ويصعب توقيف هجوم الفيلة على الفرسان، كما تؤثر على الخيول لأنها غير معتادة على رائحة الفيلة، حيث تفزع الخيول عند الاقتراب منها وتفر بفرسانها من أمام الفيلة إن لم تسقطهم من فوقها[15].

ولتدريب الفيلة على الحرب في السنوات الأولى جلب القرطاجيون مدربين شرقيين أي من مصر البطلمية أو من سوريا ومن الممكن أنهم جلبوا في البداية من الهند، ومهما يكن أصل هؤلاء فإنهم كانوا فيما بعد نوميديين أوموريين، حيث اعتادوا على الفيلة التي اصطادوها في المنطقة، واكتسبوا خبرة كبيرة في قيادة الفيلة خلال الحروب[16]، وللشهرة الكبيرة التي تميزت بها الهند في ترويض الفيلة والاستعانة بها في خوض الحروب، أطلق الكتاب القدماءتسمية الهنود على كل

موجهي الفيلة، حتى وإن كان هؤلاء الموجهون من إفريقيا أوسوريا وليسوا من الهند[17].

وقد زوّد القرطاجيون فيلتهم في الحروب بدروع لحمايتها من ضربات الخصوم، كما وضعوا خراطيم تشبه شكل الثعابين على رؤوسهم لغرضين: الأول مقاومة الجروح أثناء المعركة، والثاني وضع الكتائب العسكرية للخصم في ارتباك وحيرة[18]، كما توضع على ظهورها أبراج يركبها رماة السهام والرماة بالمقاليع بواسطة سلالم أو حبال[19].

أهم المعارك التي استخدمت فيها قرطاج الفيلة :

نشير بادئ ذي بدء إلى أننا لن ندخل في متاهات التفاصيل العسكرية لهذه المعارك وسنركز فقط على الدور الفعال للفيلة في تلك الحروب وأهمية الاستعانة بها في قهر الخصوم وتحقيق بعض الانتصارات وبالمقابل سبب إخفاقها في معارك أخرى.

لقد كانت الحرب البونية الأولى (265_241 ق.م) بداية لاستعمال الفيلة في الجيش القرطاجي، وذلك في معركة اجريجنتوم بجزيرة صقلية سنة 262 ق.م،وقد كان الجيش القرطاجي يضم في صفوفه 50000 من المشاة و6000 من الفرسان و60 فيلا، وقد وضعت هذه الأخيرة خلف خط المشاة الأول، ونظرا لعدم وضع خطة محكمة ولنقص الخبرة في استعمال الفيلة انهزم الجيش القرطاجي أمام الجيش الروماني الذي تمكن من الاستيلاء على خمسين فيلا منها[20].

وعلى الرغم من الهزيمة الأخيرة التي مني بها القرطاجيون، فإنهم لم ييأسوا من استخدام الفيلة في حروبهم، فبعد سنوات قليلة دخلوا في حرب أخرى ضد الرومان ودائما في إطار الحرب البونية الأولى وبالتحديد سنة 256 ق.م ضد القنصل الروماني ريقولوس الذي أراد مفاجأة القرطاجيين في عقر ديارهم بجيش قوامه 40000 جندي، ونزل في مدينة قليبية شمال تونس التي اعتبرها صالحة لأن تكون معقلا لجيشه لقربها من صقلية، وقام باجتياح مدن عديدة بالوطن القبلي من بينها كركوان التي تم تدميرها نهائيا ونهب خيراتها وجمع الغنائم[21]،وتمكن في البداية من هزم الجيش القرطاجي بالرغم من استعمالهم للفيلة، ويعود ذلك إلى طبيعة الأرض التي كانت غير مستوية مما أرهق وأعاق سير الفيلة فلم تؤدّ دورها كما ينبغي، كما أن القرطاجيين مازالوا يجهلون طباع هذه الحيوانات التي مازالوا لم يتحكموا فيها جيدا[22].

وبعد الهزيمة الأخيرة عيّن القرطاجيون قائدا جديدا وهو اكسنتيبوس مرتزق إسبرطي شارك من قبل في الدفاع عن أسبرطا سنة 272 ق.م حيث سبق له أن تعامل مع الفيلة الحربية آنذاك[23]، فجهز القرطاجيون جيشا قوامه 12000 من المشاة و4000 من الفرسان و100 فيل، وسار هذا الجيش في الأراضي المنبسطة، وجعل أكسنتيبوس الفيلة في خط واحد أمام المشاة، ولما رأى ريقولوس هذه الاستعدادات جعل المشاة الخفاف الحاملين للرماح في الأمام وجعل في الخلف معظم مشاة الفيالق على شكل كتل متراصة ووضع الخيالة على الجانبين، فكانت خطوطه أقل طولا وأكثر سمكا أكثر من المعتاد لكي تكون أكثر قدرة على تحمل هجوم الفيلة التي كان يخشاها على الخصوص، وأصدر القائد أكسنتيبوس الأمر لموجهي الفيلة أن يتقدموا ويكسروا خط العدو، فتمكنت الفيلة من بث الارتباك والرعب في نفوس الجنود الرومان الذين داستهم الفيلة القرطاجية ومات

الكثير من أفراد الجيش الروماني، واستطاعت القلة الفرار، وانتهت المعركة بانتصار كبير للجيش القرطاجي بفضل الاستعمال الناجع للفيلة[24].

وما كادت الحرب البونية الأولى تنتهي حتى دخلت قرطاج في حرب جديدة مع جندها المأجور من الليبيين والمرتزقة في أواخر 241 إلى 237 ق.م والتي كانت من تداعيات صراعهم مع الرومان، فقد ثاروا على قرطاج بسب تماطلها في دفع مستحقاتهم المالية، وقد تمكنوا في البداية من إلحاق الهزيمة بالقائد القرطاجي حنون فتملّك الرعب القرطاجيين فقرّروا عزل القائد المذكور سالفا وتعيينهاملكار برقة خلفا له[25]وجهزوه بجيش قوامه 10000 رجل و70 فيلا ضد 25000 من الجند المأجور، وانتهت المعركة بانتصار كبير للجيش القرطاجي وهذا بفضل فيلتهم وحنكة القائد القرطاجي هاملكار برقة الذي أمر باستعمال الحرب النفسية من البداية فقام بتقييد الأسرى ووضعهم في طريق الفيلة الذين دهستهم بطريقة وحشية ليثير الرعب في نفوس البقية، وبعد ذلك اتجه إلى أوتيكاوحاصر جماعات الثوار من كل الجهات بتقدم جيشه من جهة وهجوم فيلته عليهم من الجهة الأخر بالتي دمرتهم بأرجلها، إذ ساهمت الفيلة بدور هام في انتصار القرطاجيين بطريقة فعالة أثناء المعركة[26].

وبعد إخماد ثورة الجند المأجور قرّرت قرطاج التوسع في إسبانيا لتعويض ما خسرته من مجال حيوي بالبحر المتوسط فضلا عن إيجاد موارد لتسديد الغرامة الحربية الثقيلة المفروضة عليها من طرف الرومان، خاصة وأن جنوب شبه جزيرة أيبيريا كان يحتوي على مناجم الفضة والذهب التي ستمكن

قرطاج من تعويض خسائرها في الحرب، والتضييق كذلك على روما وحصر نفوذها، وفعلا تمكنت قرطاج بفضل هذا التوجه من استعادة قوتها ومكانتها الإستراتيجية بالبحر المتوسط كما دفعت كامل الغرامة المالية المفروضة عليها منذ سنة 231 ق.م وعاد اقتصادها للازدهار من جديد مما أثار مخاوف الرومان فكان ذلك أحد أسباب اندلاع الحرب البونية الثانية التي اندلعت سنة 218 ق.م[27].

عرفت الحرب البونية الثانية التي ارتبطت ارتباطا كبيرا بالقائد القرطاجي حنبعل العديد من المعارك في إسبانيا وإيطاليا وانتهت بشمال إفريقيا، إذ تم استعمال سلاح الفيلة في بعضها، ولهذا سنركّز في بحثنا هنا على دور الفيلة في تلك المعارك دون التطرّق إلى المعارك الأخرى.

توجّه حنبعل نحو إيطاليا بجيش قوامه 90000 مشاة و12000 فارسا إضافة إلى 37 فيلا وقد اتّخذ الطريق البرية للوصول إلى إيطاليا انطلاقا من العاصمة البرقية قرطاجنة وبعد اجتيازه جبال البيريني بإسبانيا وصل في أيام قليلة إلى مشارف إلى نهر الرون فعبره بسهولة ومنه إلى نهر البو شمال إيطاليا، وخاض بعض المعارك مع الجيش الروماني[28]، نذكر منها **معركة تربيبا** التي وقعت في آخر شهر ديسمبر 218 ق.م حيث أرسل حنبعل في الأمام رماة المقاليع البلياريين والمشاة الخفيفة المسلحين بالرماح القصيرة ويبلغ عددهم حوالي 8000 رجل، ثم خرج بنفسه مع بقية الوحدات حيث نشر في خط واحد المشاة الثقيلة المسلحة حوالي عشرين ألف رجل من الأفارقة والإيبيريين والغاليين ووضع عشرة آلاف فارس على الجناحين، وفي مقدمة الجيش وضع 30 فيلا مقسمين على الجناحين[29].**(انظر خطة المعركة رقم1 في الصفحة الموالية)**

وفي الجهة المقابلة يقود الجيش الروماني سامبرونيوس الذي تبنّى الخطة التقليدية، المشاة الخفيفة في الوسط والمشاة الثقيلة المسلحة تغطي الخط الأول

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

ووحدات الفرسان على الجناحين، ولقد تراجعت هذه الأخيرة نحو الوسط متأثرة بضربات الفرسان النوميديين الأكثر عددا وقوة وتحت ضربات الفيلة وهجوم رماة الرماح والبليباريين المسلحين بالحراب، ومن جهة أخرى نصب القائد القرطاجي ماقون كمينا للمشاة الرومان الذين فاجأهم بالهجوم عليهم من الخلف، فحوصر الجيش الروماني بالفيلة من الأمام وبالمشاة القرطاجيين والفرسان من الجانبين والنهر من الخلف، فتمكن حنبعل من هزم الجيش الروماني الذي تقهقر إلى الخلف وواصل حملته[30].

وفي ربيع 217 ق.م عانى الجيش القرطاجي كثيرا من الأمطار في شمال إيطاليا وفي مستنقع منطقة ارنو، وأصيب حنبعل بالرمد وفقد أحد عينيه كما خسر جميع فيلته ولم يبق له إلا فيل واحد اتخذه كمطية في تنقلاته، وأصبح يعرف في الكتابات الكلاسيكية **بالقائد الأعور**، وخاض حنبعل في هذه الأثناء معركة قرب تراسيمنوس انتصر فيها على الجيش الروماني، ثم واصل سيره باتجاه وسط وجنوب إيطاليا حيث خاض معركة كانيه في 2 أوت 216 ق.م والتي تعتبر أكبر انتصارات حنبعل ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حنبعل لم يستخدم الفيلة في هذه المعركة[31].

وقد عاد حنبعل لاستخدام الفيلة من جديد في معركة كابوا سنة 210 ق.م بعدما حصل مجددا على 32 فيلا، وفاجأ بها الرومان ليلا مما أحدث فزعا واضطرابا في صفوفهم، غير أن حنبعل لم يستغل عامل الاضطراب الذي أحدثه

في المعسكر الروماني، فسرعان ما تمالك الرومان أنفسهم وقاوموا الفيلة برميهم بمشاعل النار وفعلا بثت المشاعل الذعر بين الفيلة مما جعلها تلقي بركابها تحت أقدامها أثناء هروبها من ميدان المعركة فاضطر الجيش القرطاجي إلى الانسحاب، ولم تؤدّ الفيلة دورها المتوقع منها والمتمثل في تشتيت خطوط الجيش الروماني[32].

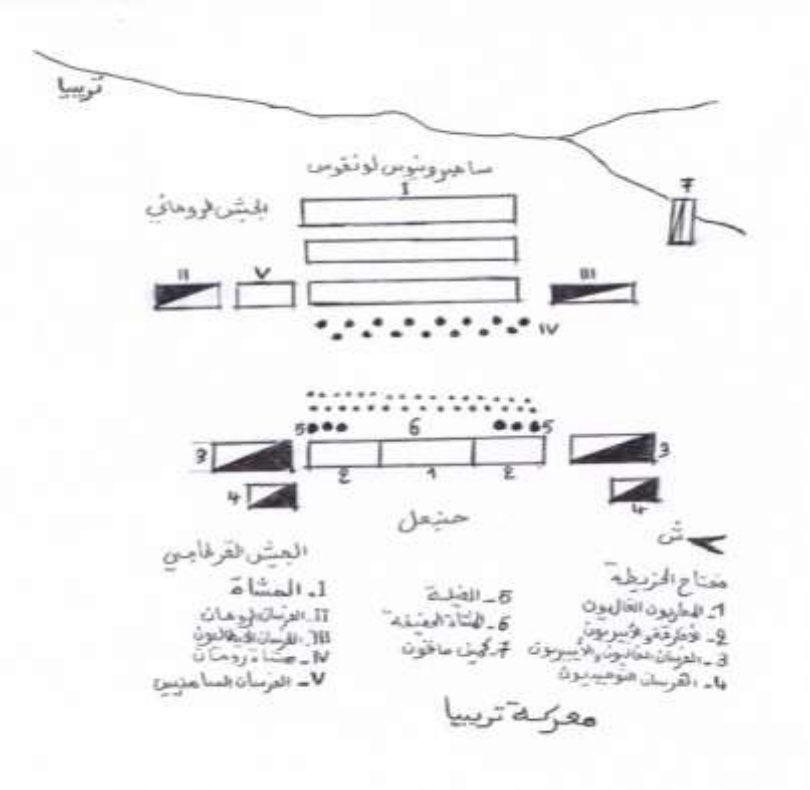

بعد ذلك خاض القرطاجيون معركة ميتاوروس سنة 207 ق.م بقيادة عزربعل القرطاجي في ظروف سيئة جدا تمثلت في عزلة حنبعل وقطع الرومان لأي مساعدة تقدمها قرطاج لجيش حنبعل أو لأخويه، وكان جيشه مكونا بصفة خاصة من الجند الإسبان وقد تم وضع وحدات من الليقوريين في الوسط وجعل

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

الفيلة في المقدمة لكن لم تحدد المصادر عددها، وفي الجهة المقابلة يقود الجيش الروماني رجلان هما ليفيوس سليناتور على الجهة اليسرى الذي تحمّل صدمة الجيش القرطاجي وعلى الجهة اليمنى نيرون كلاوديوس الذي كان مقابلا للوحدات المساعدة الغالية[33]، ومع بداية المعركة أطلق عزربعل الفيلة التي حققت بعض النجاح في البداية لكنها لاقت مقاومة عنيفة من الرومان فأصيب أغلبها بالحروق وفقد العديد من مدربيها فأصبح الكثير منها بلا قيادة وكانت تجري مضطربة في كل اتجاه، فاضطر عزربعل أن يأمر بقتل الفيلة المجروحة، وانتهت المعركة بهزيمة القرطاجيين ومقتل القائد عزربعل[34] بقطع رأسه ورميه أمام الوحدات القرطاجية للتأثير على معنوياتهم، فقد أرعبت مشاعل النار التي كان يرميها الجنود الرومان على الفيلة[35].

واتجهت الحرب بعد هزيمة القرطاجيين في ميتاوروس تميل لصالح الرومان، مما شجع هؤلاء للتقدم نحو إسبانيا ودخل الجانبان في معركة إليبا سنة 206 ق.م التي تقع على بعد 15 كم من سيفيل، وقبل اندلاع المعركة كان القائد الروماني سيبيون كورنيليوس الملقب بالأفريقي ينهض مبكرا ينظم جيشه ويراقب الجيش القرطاجي، بالمقابل كان القائد القرطاجي يصل متأخرا، وكان عدد الجيشين متكافئا، وضع سيبيون المشاة وهم من الرومان في الوسط ووضع حلفاءه الأيبيريين على الجناحين، أما القائد القرطاجي ماقون برقة فقد جعل الأفارقة القوة الصلبة في المقدمة والفيلة على الجناحين وحلفاءه الأجانب على الجانبين، وعندما اندلعت المعركة غيّر سيبيون خطة جيشه حيث نشر مشاته على

عكس العادة فوضع حلفاءه الأيبيريين في الوسط والرومانيين على الجناحين، وبدأت المعركة بعد أن أمر القائد الروماني فرسانه بمناوشة الجيش القرطاجي الذي لم يغير في خطته ولم ينتبه للخطة الجديدة لخصمه[36]، وبعدها تقدم جناحا الجيش الروماني وتثاقلت قوات الوسط المتكونة من الرومانيين، في حين اندفعت الفيلة القرطاجية لكي تهاجم مقدمة الخصم فوقعت فريسة الهجوم من الجناحين مما أدى إلى فقدان السيطرة عليها فتراجعت إلى الخلف مذعورة بين الجند القرطاجي، فاستغل الجيش الروماني هذا الفزع في صفوف أعدائهم فكثفوا من هجومهم فانهزم الجيش القرطاجي بسبب هذا الاضطراب[37]، فضلا عن التعب والحرارة وانسحب من ساحة المعركة بعد أن تكبّد خسائر فادحة وعاد سيبيون الإفريقي بانتصار هام، والتجأ القائد القرطاجي إلى قادس ومنها عبر نحو منطقة شمال إفريقيا، حيث كانت هذه الهزيمة نهاية للوجود القرطاجي بإسبانيا[38].

بالمقابل أصبحت روما هي القوة المسيطرة على البحر المتوسط وعلى الوضع بصفة عامة وتحولت الحرب إلى منطقة شمال إفريقيا آخر محطات الحرب البونية الثانية، حيث خاضوا فيها بعض المعارك أهمها معركة زاما 202 ق.م بالتراب التونسي، وبدأت الاستعدادات للحرب بحشد حنبعل حوالي خمسين ألف مقاتل من البلياريين والغاليين والليغوريين والمور المجندين كمرتزقة منذ سنوات، أما النواة الصلبة في جيشه فتتكون من المشاة الإسبان والنوميديين والطليان فضلا عن ذلك ثمانين فيلا، أما سيبيون فيتكون جيشه من 23 ألف مقاتل وأضاف إليهم ستة آلاف نوميدي بقيادة ماسينيسا[39].

ونشر حنبعل جيشه على ثلاثة خطوط مقابلة للجيش الروماني، يتكون الخط الأول من الليغوريين والغاليين والبلياريين وبعض الموريين وعددهم في هذا الخط 1200 من المشاة، أما الخط الثاني يتكون من البونيين والليبو فينيقيين

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 21 العدد 01 السنة 2020 ص ص 78-100
E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

والليبيين الذين حشدوا للدفاع عن إفريقيا، أما الخط الثالث الذي يتواجد خلف الخطين الأول والثاني فيتشكل من المقاتلين الذين كانوا مع حنبعل في حملاته على إيطاليا، ووضع سلاح الفرسان على الجناحين والفيلة في المقدمة وخلفهم المشاة الخفاف ومن وراءهم المشاة الثقيلة أما الحلفاء النوميديون فكانوا على الجهة اليسرى والقرطاجيون على الجهة اليمنى[40].

أما القائد الروماني سيبيون فقد قسّم جيشه إلى ثلاثة خطوط[41]، فوضع الفرقة النوميدية بقيادة ماسينيسا على الجناح الأيمن والقائد كايوس لايليوس وفرقته على الجناح الأيسر وفي الوسط انتصبت المشاة الرومانية الأخرى بمختلف أنواعها[42]. ولأن مشاة الجيش الروماني أي من جهة الأجنحة في هذه المعركةلم تكن قوية بسبب النقص العددي مقارنة بنظيرتها في الجيش القرطاجي، فلذلك قسمت مشاته إلى فرق صغيرة وتركت فجوات ما بين الصفوف ليساعد ذلك على امتصاص صدمات الفيلة القرطاجية ووضعت كل مجموعة وراء الأخرى[43].

وبعد أن ألقى القادة خطب التشجيع على الجيوش، بدأت المعركة بمناوشات بين الفرسان النوميديين من كلا الجيشين، ثم أمر حنبعل أن تتقدم الفيلة ولكن هذه الأخيرة ذعرت من ضجيج الأبواق التي تعالت أصواتها من كل جهة وتعرضت لهجومات كثيفة بالسهام والسيوف وقتل موجهو الفيلة ممّا جعل بعضها يتراجع إلى الوراء وينقض على النوميديين الذين يقودهم الملك سيفاكس والمكونين للجناح الأيسر في الجيش القرطاجي، واندفع بعضها في الفجوات التي تركها سيبيون بين صفوفه[44]. ومن أسباب فشل الفيلة في أداء دورها على أكمل

وجه أنها كانت صغيرة وغير مدربة بشكل جيد[45]. ومما تجدر الإشارة إليه أن الفيلة حيوانات تبقى عنيدة حتى بعد الترويض وبعد العديد من سنوات الممارسة فتكون خطيرة بالتساوي على الطرفين في المعركة[46]، لاسيما بعد مقتل قادتها الذين يوجهونها في المعركة وهذا ما حدث في معركة زاما[47]. **(انظر خطة المعركة رقم2 في الصفحة الموالية)**

وتمكّن الجيش الروماني من الانتصار بفضل عملية التطويق التي لعب فيها الفرسان النوميديون دورا أساسيا، وتكبد الجيش القرطاجي هزيمة ثقيلة على أرضه حيث قتل حوالي نصف جيشه وأسر خمسه تقريبا أما سيبيون فلم يفقد سوى عشر جنده[48].

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 21 العدد 01 السنة 2020 ص ص 78-100
E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

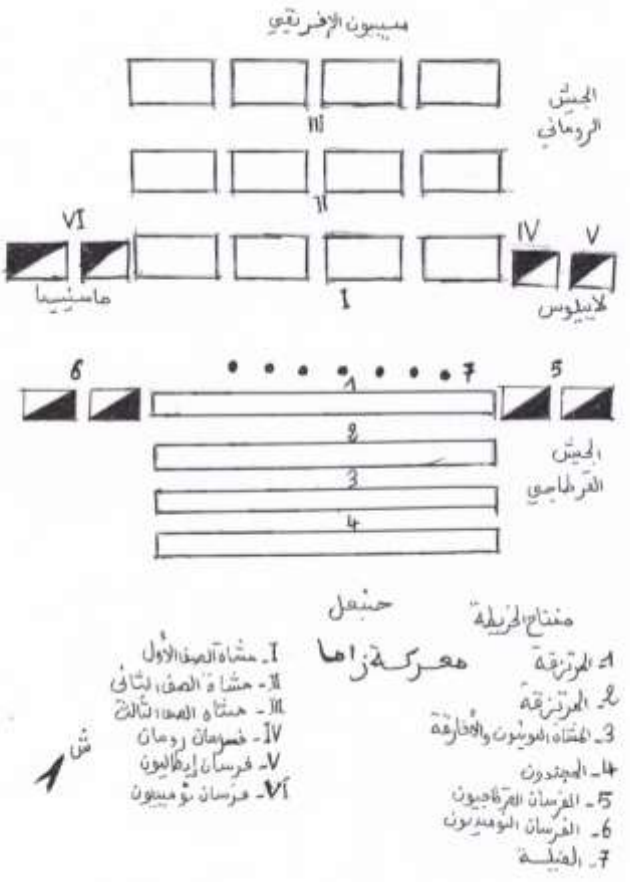

ولقد استطاع سيبيون الإفريقي أن يبرهن خلال معركة زاما عن قدرته في رسم تكتيك ناجع مكّنه من تدارك نقصه العددي، ومن إفشال وطأة الفيلة التي كان حنبعل يعوّل عليها بأن جعلها في الخط الأمامي، ولاشك أنه استفاد كثيرا من حيل حنبعل وخططه في القتال، ومن جهة أخرى يبدو لنا أن هذا الأخير قد استهان

بقدرات خصمه خاصة وأن جيشه يفوق الجيش الروماني عددا، كما لم يكن تكتيكه المركز على الفيلة ناجحا، وربما قد أفرط حنبعل في الثقة في النفس بعد طول تجربة في المعارك، فكانت معركة زاما من أسوأ المعارك التي انهزم فيها القرطاجيون عبر تاريخهم ليس بنتائجها المباشرة فحسب، بل بنتائجها المستقبلية التي قيدت كل تحركات قرطاج بعد ذلك سياسيا واقتصاديا وعلى وجه الخصوص عسكريا[49].

وهكذا سيقت قرطاج إلى ما لا يحمد يعقباه بعد أن فرضت عليها معاهدة جد قاسية عرفت بمعاهدة زاما سنة 201 ق.م ومن أهم ما جاء فيها أن تتخلى قرطاج عن كل فيلتها وألا تسعى إلى اقتناء أو ترويض فيلة أخرى[50]، ويدل الشرط الأخير من نص معاهدة زاما على خشية الرومان من الفيلة وبالتالي فقد حرموا القرطاجيين من امتلاكها مجددا.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

الخاتمة:

وختما يمكن القولأن الفيلة أدت دورا هاما في الجيش القرطاجي منذ الحرب البونية الأولى وإلى غاية نهاية الحرب البونية الثانية، فبفضلها حقّق القرطاجيون انتصارات عديدة على أعدائهم الرومان منها : هزم ريغولوس وفي معركة تريبيا، غير أن القادة الرومان عرفوا كيف يحبطون دور هذه الحيوانات الضخمة بمجموعة من الخطط والإجراءات التي فعلا حالت دون القيام بدورها المنوط لها، ومن هذه الإجراءات نذكر ما يلي:

_ محاولة قتل موجهي الفيلة وإصابة هذه الأخيرة بأكبر عدد ممكن من السهام والرماح وبمشاعل وكرات من النار في المناطق الحساسة لثنيها من التقدم إلى الإمام.

_ إصدار أصوات مزعجة من خلال النفخ في الأبواق لإثارة الفيلة وإفزاعها وبالتالي هروبها من ساحة المعركة.

- ترك مساحات فارغة بين صفوف الجند مثلما فعل سيبيون الإفريقي في معركة زاما 202 ق.م حتى تسير عبرها الفيلة ويتم تفادي هجومها.

وبفضل هذه الإجراءات فشل القرطاجيون من الانتصار على أعدائهم الرومان في بعض المعارك مثل معركة كابوا وميتاوروس وزاما، وبل صارت الفيلة عبئا على أصحابها، إذ قامت هذه الأخيرة بالهجوم على الجيش القرطاجي خاصة إذا كانت مرعوبة، ليقوم الجند القرطاجي بقتلها.

ونشير في الأخير أنهلم تنته الاستعانة بسلاح الفيلة بسقوط قرطاج، فقد التجأ إليه بعض الملوك النوميديين مثل الملك يوغرطة (118-104 ق.م) ضد حملات الجيش الروماني، وكذلك الملك يوبا الأول (60-46 ق.م) في حربه ضد يوليوس قيصر.

المعركة	السنة	عدد الفيلة المستخدمة
اجريجنتوم	262 ق.م	60 فيلا
ريقولوس	256 ق.م	100 فيل
بالرمو	254 ق.م	130 فيلا
الجند الماجور	237-241 ق.م	100 فيل
تريبيا	218 ق.م	30 فيلا
كابوا	210 ق.م	32 فيلا
ميتاوروس	207 ق.م	غير محدد
ايليبا	206 ق.م	36 فيلا
إقليم الغل	203 ق.م	غير محدد
زاما	202 ق.م	80 فيلا

المعارك التي استخدمت فيها قرطاجة الفيلة

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

الهوامش:

[1] - من أشهر المعارك التي حدثت في الهند وبالتحديد في إقليم البنجاب **معركة هيداسبس سنة** 326 ق.م إذ استعان الملك بوروس بعدد ضخم من الفيلة ضد جيش الأسكندر الذي جاء غازيا، ولقد تمكن جيش هذا الأخير المتكون من المشاة والفرسان فقط من إلحاق الهزيمة بهم، بعد قطع خراطيم الفيلة وضرب أرجلها وقتل موجهيها، واستولى على الأقل على 130 فيلا، للمزيد انظر:

--Konstantin Nossov , war elephants , Osprey publishing , Oxford , 2008 ,p p, 10-11.

[2] –استعمل الفرس الفيلة في عدة معارك من أهمها **معركة غوغميلا** في 1 أكتوبر 331 ق.م التي استخدم فيها الفرس بقيادة داريوس الثالث 15 فيلا ضد جيش الأسكندر المقدوني الذي واجه فيها لأول مرة حرب الفيلة، غير أن الفيلة فشلت في الانتشار وأداء ما كان منتظرا منها بسبب التعب الذي نال منها لطول المسافة التي قطعتها قبل بداية المعركة، فاستولى الأسكندر على عدد منها، للمزيد انظر:

- Cohen Fanny Dora Marcelle , L'éléphantd'Afrique etL'éléphantd'Asie , thèse Pour le doctorat vétérinaire Présentée et soutenue publiquement devant la faculté de médecinedeCréteil , 2000, p 84, Konstantin Nossov ,op.cit , pp 10-11.

[3] -Cohen Fanny Dora Marcelle op.cit , p 82.

[4] - Konstantin Nossov ,op.cit, p 26.

[5] - هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001.

[6] -Euzennat Maurice. Le périple d'Hannon. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 138e année, N. 2, 1994. P 573.

[7] - Strabon, Strabon, Géographie, éditions traduit par Tardieu Amédée, Paris: L. Hachette,

[8] - Marcel Griaule, Gravures rupestres et rites de l'eau en Afrique du Nord Journal de la Société des Africanistes, Année 1934, Volume 4, Numéro 2 pp 292-294.

[9] - Pline l'Ancien, histoire naturelle, éditions et choix d'Hubert Zehnacker, collection folio classique, Gallimard, paris, 1999, p

[10] - Guey Julien. Les animaux célestes du nouvel édit de Caracalla. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 92e année, N. 1, 1948. pp.128-129.

[11]-Faidherbe ,mémoire sur les éléphants des armée carthaginoises ,in B,A ,H, N 3, p 12.

[12] - Konstantin Nossov ,op.cit, p 26.

[13] - Cohen Fanny Dora Marcelle , op.cit , p p 82-83.

[14] - Charles Gilbert Picard , la vie quotidienne a Carthage au temps d'Hannibal , paris , Hachette,1958 ,p 202.

[15] - Cohen Fanny Dora Marcelle , op.cit , p 82.

[16]- G , Esperandieu , op.cit, p 2601.

[17]--Konstantin Nossov ,op.cit , p8.

[18] - ibid , p Konstantin Nossov ,op.cit 28.

[19] - Charles Gilbert Picard, op.cit, p 202.

[20] - ibid , p 27.

[21]- نبيل قلالة وآخرون، تونس عبر التاريخ، العصور القديمة، الجزء الأول، مركز الدراسات والبحوث، تونس، 2007، ص 121.

[22]- Konstantin Nossov ,op.cit, p 28.

[23]- ibid , p 29.

[24]- استيفان قزال، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ج 3، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007، ص ص 76-81.

[25]- محمد العربي عقون، من تداعيات الحرب البونية الأولى على قرطاج ثورة جندها المأجور(241-237 ق.م) ، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 21 ، جوان 2004، جامعة منتوري، ص ,203

[26]- استيفان قزال، المرجع السابق، ص 102-109.

[27]- نبيل قلالة وآخرون، المرجع السابق، ص ص 124-125.

[28]- المرجع نفسه، 127- 128.

[29] - Serge Lancel , Hannibal , édition cérès , Tunis , 1999, p p 162-163. Nic Field , the roman Army of the punic wars (264-146 BC) ,Osprey publishing , Oxford ,2007, 71-72.

[30]-Serge Lancel , op.cit, p 163 .

[31] - Serge Lancel , Carthage , , édition cérès , Tunis ,1999, p p 517-520.

[32]- فوزي مكاوي، الفيل الإفريقي ودوره في الحروب القديمة، مجلة المناهل، العدد 17، السنة السابعة، مارس 1980، الرباط، ص 286.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

[33]- Serge Lancel , Hannibal, p p 270-271.

[34]-- فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ص 287-288.

[35] - Serge Lancel , Hannibal, p 271.

[36]- Nic field, op.cit p 80. - Serge Lancel , Hannibal, pp 273-274 .

[37]- فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 289.

[38] -Serge Lancel , Hannibal, p 275.

[39]- Serge Lancel , Hannibal, p 317.

[40]- Nic field, opcit, pp 81-84.

[41]- Serge Lancel , Hannibal, p 317-

[42]- Nic field, op.cit, p 85.

[43] - Spencer Tucker , battles that changed history , ABC-CLIO , California ,2011, 58-59.

[44] - Serge Lancel , Hannibal,p380, Cohen Fanny Dora Marcelle , op.cit, 87.

[45] - Nic field, op.cit, p 85.

[46]- يوليوس قيصر، حرب إفريقيا، ترجمة محمد الهادي حارش، دار هومة، الجزائر، 2014، ص35.

[47]-Konstantin Nossov ,op.cit, p 8.

[48]- نبيل قلالة وآخرون، المرجع السابق، 132.

[49]- المرجع نفسه، ص 132.

[50] - Serge Lancel , Hannibal,p 320.

مجلة الدراسات التاريخية